تمهيد

قبل الولوج إلى مفهوم "استراتيجيات الخطاب " وجب علينا الوقوف عند مفهوم مصطلح "الاستراتيجية"، حيث ورد هذا المصطلح أول مرة في المعجم العسكري حين يتعلق الأمر بوضع استراتيجية لعملية الهجوم أو الدفاع، ثمّ توسّع استعمال هذا المصطلح ليمس مختلف الميادين (استراتيجية سياسية، استراتيجية اقتصادية...).

ويمكن أن يأخذ مصطلح " الاستراتيجية" مفهوم ومعنى "المخطط" (Plan) أو التصميم (design)؛ أي مفهوم اتخاذ قرارات معيّنة من أجل هدف تمّ تسطيره من قبل، فـالاستراتيجية هي " اختيار طرق معيّنة للقيام بمهمة أو لحلّ مشكلة؛ وهي عموما مجموع العمليات والتدابير التي تتخذ قصد بلوغ غايات بعينها" (التحليل النقدي للخطاب، ص 74),

ويستعمل مصطلح الاستراتيجية بطرائق مختلفة في مجال تحليل الخطاب وذلك حسب تيارات البحث واتجاهاته. وثمة مرحلتان أساسيتان عند اتخاذ استراتيجية ما، وهما: المرحلة الذهنية والمرحلة العملية (التفكير والتنفيذ)، إذ ترتكز العمليتان على التحليل والدّراسة من أجل وضع استراتيجية تهدف إلى تحقيق المراد و" يعمد المرسل إلى أن ينتج خطابه وفقا لاستراتيجية معيّنة" (استراتيجيات الخطاب، ص 55). حيث تختلف الاستراتيجيات وتتنوع باختلاف وتنوع السياقات والظروف.

وتحمل الاستراتيجية عند فوكو، معان متعددة تناسب سياق معيّن، إذ تستعمل الاستراتيجية:

" – للتدليل على اختيار الوسائل المستخدمة للوصول إلى غاية معيّنة، والمقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما،

- للتدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء في لعبة معيّنة ... فهي الطريقة التي تحاول التأثير بها على الغير

- للتدليل على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام" (نفسه، ص 55).

1. الاستراتيجية في استعمال اللغة

يلجأ النّاس إلى استعمال اللغة في نسق منظم وفق متطلبات السياق إذ " يؤخذ بعض من هذا التنظيم من الحقيقة التي تقول إن النّاس ينتمون إلى جماعات اجتماعية، ممّا يجعلهم يتبعون نماذج من السلوك العام والمتوقع داخل الجماعة... ويؤخذ المصدر الثاني للتناسق في استعمال اللغة من حقيقة أخرى تقول إنّ أغلب النّاس الذين ينتمون إلى المجتمع اللغوي ذاته يمتلكون معرفة العالم بشكل متشابه كما أنّهم يشتركون في كثير من المعارف غير اللغوية" (الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ج2، ص 396، نقلا عن محمد فاسي الفهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية وتداولية، ص 56).

2. استراتيجية الخطاب

يتمحور مفهوم استراتيجية الخطاب حول الخطاب مخطط له؛ اختار المخاطِب (المتكلم) استراتيجية مناسبة للتعبير عن مقصده وهدفه من الخطاب. واعتبار السياق الذي أنجز فيه المتكلم خطابه على اعتبار أن الخطاب هو فعل اجتماعي (وقد ركّزنا على هذه النقطة بالذات في الحصة التطبيقية عندما تمّ تحليل الخطاب السياسي).

لا يمكن تحديد استعمالات اللغة بمعزل عن عناصر السياق الاجتماعية؛ حيث تتصل القدرة التواصلية عند استعمال اللغة الطبيعية، بمجموعة من الملكات التي تتمثل في الملكة اللغوية

والمنطقية والمعرفية والإدراكية والاجتماعية، ولكل ملكة قالب خاص بها، ينتج عن كل ملكة اللغوية مثلا القالب اللغوي، والمنطقي، والمعرفي، والإدراكي، والاجتماعي.
قسّم الباحثون القوالب المذكورة أعلاه، إلى فئتين حيث تشمل الأولى على القالب النحوي والمنطقي؛ أي (القدرة اللغوية)، أمّا الفئة الثانية فتضم القالب المعرفي والإدراكي والاجتماعي؛ إي (القدرة الخطابية) التي تؤدي حتما إلى القدرة التواصلية،(ينظر المرجع نفسه، ص59) [وقد أشار " أحمد المتوكل" في أبحاثه (انطلاقا من أبحاث سيمون ديك). وقد تمّ التطرق إلى ذلك في الدروس السابقة).
لقد اهتم " القرطاجني" بالقوالب المذكورة أعلاه، لكن أطلق عليها اسم " القوى" فقسّمها إلى:
- "القوة الحافظة؛ التي تختص بانتظام خيالات الفكر وترتيبها في أقدار معيّنة، وتميز بعضها عن البعض الآخر لتهب المرسل ما يناسب سياق خطابه
- القوة المائزة؛ وهي القدرة على التمييز بين ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، ما يصح وما لا يصح
- القوة الصانعة؛ وهي التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض، والتدرج من بعضها إلى بعض" (نفسه، ص 59).
وتعمل كل هذه القوى على إنتاج خطاب يتسم بصحة تراكيبه ومناسبة مضمونه للسياق الذي قيل فيه، وفق قصد المتكلم وهدفه من هذا الخطاب، وعليه تتجلى الكفاءة التداولية في توالي هذه القوالب أو القوى، حيث " تستثمر الكفاءة التداولية القوالب الكامنة في ذهن الإنسان" (نفسه، ص59)، فالقوانين اللغوية (القواعد) هنا، تصف قدرة المرسل والمرسل إليه في استعمال اللغة، بينما تصف قوانين التواصل " ما يستحسن فعله، وتتعامل الاستراتيجيات مع عملية اختيار أفضل الوسائل تأثيرا من السلوكيات التواصلية التبادلية" (نفسه، ص59).
يؤدي أطراف التواصل دورا أساسيا في عملية التواصل، فالمتكلم عند "بنفينيست" "حقيقة خطابية"، حيث يعتمد استراتيجية معيّنة من أجل التأثير على المتلقي مراعيا في ذلك الجانب النفسي والاجتماعي زظروف إنتاج الخطاب ككل، وعليه ثمة إذًا، حسب الباحثين، ثلاثة معايير يتمّ من خلالها تصنيف استراتيجيات الخطاب وهي:
- معيار العلاقة بين طرفي الخطاب
- شكل الخطاب
- هدف الخطاب
لأنّ الخطاب هو" كل منطوق موجه به إلى الغير للتعبير عن قصد المرسل ولتحقيق هدفه، إذ يتركب هذا التعريف من محاور ثلاثة هي: أنّ الخطاب يجري بين ذاتين وأنّه يعبّر به المرسل عن قصده، وأنّه يحقق هدفا" (نفسه، ص 86).

3. استراتيجيات التحليل المحادثي

لقد قابل "ليفنسن" (Levinson) منذ 1983 بين تحليل الخطاب Analyse du discours وتحليل المحادثة Analyse de la conversation كونهما تيارين المهيمنين على اتجاه التحليل المحادثي َAnalyse conversationnelle الذي يهتم بالخطاب عند التفاعل، من خلال دراسة التفاعلات الكلامية المحادثية التي انبثقت من الدراسات التداولية اللسانية، وتشمل هذه الدراسة على مجالين منافسين:
- تحليل الخطاب؛ وهو عبارة عن دراسات نابعة من إشكالية لسانية يدور موضوعها حول كل أنساق المحادثة

- تحليل المحادثة؛ وهو منحدر لساني اثنوميتودلوجي، أي ينحدر من التقليد الاجتماعي.

1.3 الخصائص المشتركة بين التيارين:

- يهتم التياران (تحليل الخطاب، وتحليل المحادثة) بالخطاب الشفوي (المحادثات الطبيعية العفوية)؛ أي التفاعلات اللغوية القائمة بين ذرفين أو أكثر، ويكون التركيز على التواصل اللغوي وغير اللغوي، وقد اعتمدت معظم مقاربات المحادثة على " لسانيات الكلام (مقابل لسانيات اللسان في المفهوم السوسيري) أو لسانيات الإنجاز(مقابل لسانيات الملكة من المنظور التسومسكي)" (القاموس الموسوعي للتداولية، 2010، ص 510)

وقد استعان الباحثون في مجال التحليل المحادثي بالأبحاث السوسيولسانية لــ " وليام لابوف" (W/ Labov) التي ركزت على التفاعل اللغوي في المجتمع سنة 1976 و1978، وأبحاث "ديل هايمز" (D/Hymes) 1972، وغمبرز (Gumperz) 1989 في مجال إتنوغرافيا التواصل، ومن ثمّ ظهر ما يسمى باللسانيات التفاعلية وهو المجال الذي اهتمت به الباحثة "كيربرات أوروكيوني" (Kerbrat – Orecchioni) سنة 1990.

- يهتم المجالان بالنظام التسلسلي للمحادثات، بالتركيز على قواعد ومبادئ ومعايير التي يتحقق من خلالها الانسجام الذي يتم من خلاله تأويل الخطاب بربطه بالسياق التفاعلي الاجتماعي؛ أي " يحيل الانسجام على خصائص النّص أو الخطاب التي تضمن قابليته للتأويل" (نفسه، ص 500).

- يركز المجالان بطريقة صريحة أو ضمنية بمنطق الأفعال اللغوية؛ لأنه أثناء تحليل الخطاب نجد المبادئ المنطقية ترتبط أساسا بنظرية الأفعال الكلامية التي تسهم بقوة في التنبؤ بالعلاقات القائمة بين الأفعال التي تتكوّن على شكل متواليات داخل المحادثة، فمثلا السؤال يستدعي جوابا والدعوة تستدعي قبولا...

أما في مجال تحليل المحادثة، يظهر منطق الأفعال على مستوى التنظيم المحادثي، حيث ينتج عن الأفعال الكلامية الانجازية تنظيم قائم على التفضيل والمناسبة الشرطية (نفسه، ص 511)

2.3 مظاهر الاختلاف بين التيارين

- يختلف التياران من حيث الإحالة، حيث يعتمد تحليل الخطاب على النسق الشكلي؛ أي كما تطرقنا إلى ذلك في المحاضرة السابقة، الاهتمام خاصة بالمقاربة المعجمية أو الإحصائية اللغوية، بينما يرتكز تحليل المحادثة على التفاعل الاجتماعي، الذي ينتج عنه سلوك اجتماعي يتنوع بتنوع المتكلم واللغة المستعملة ونوع المستمع، والغاية والغرض، الموقف الكلامي (ميشال زكريا، 1993، ص 11)، إذ يركّز المحلل اللساني الاجتماعي تحليل الهيكل التفاعلي للمحادثة على كيفية أخذ الأدوار وتناوبها وربطها بالطقوس والعادات من أجل تأويل اللغة المستعملة في الموقف الكلامي، ويُقصد بالهيكل العام للمحادثة أنها تتكون، حسب ساكس وزملاؤه، من ثلاث مراحل متتابعة وهي: الافتتاح والهيكل (الموضوع)، والاختتام أو الإنهاء، وعليه يكون بناء المحادثة وفق هذه المراحل وكذا مجموعة من القواعد المنظمة.

- يختلف التياران من حيث المنهج المتبع في عملية التحليل؛ يعتمد تحليل الخطاب مبادئ التحليل اللساني من خلال تحديد مجموعة من الوحدات اللغوية ونوع العلاقات الوظيفية التي تربط بينها؛ أي بالنظر إلى مكونات خطاب المحادثة (الفعل والتدخل والتبادل) مرتبطة بمبادئ التركيب وقواعد التسلسل التي تسمح بالتمييز بين المتواليات الخطابية المنسجمة من غيرها؛

بمعنى الاهتمام بالجانب النحوي الذي يفرض حسن الصياغة، وقد ركّز الباحثون أكثر على تحليل التركيب الأصغر micro – syntaxe والتركيب الأكبر macro -syntaxe.
في حين اعتنى تيار تحليل المحادثة بقضية تتابع الأدوار بين المشاركين في التفاعل اللغوي، والنظر إلى مبادئ تنظيم مجرى الحديث الذي يتحقق من خلاله الإنهاء أو المواصلة في الحديث.
- يختلف التياران من حيث الجانب الابستيمولوجي؛ إذ يرتكز تحليل الخطاب على الاستنباط، يتجلى هدفه في وضع نموذج للمحادثة الذي يشمل على قواعد التأويل والتسلسل، من خلال تأويل الملفوظات التي ينتج عنها متواليات من الأفعال الكلامية تعمل على بناء المحادثة؛ أي ترتبط الأفعال بالأقوال المنجزة من قيل المشاركين في التفاعل اللغوي.
بينما مجال تحليل المحادثة فهو تجريبي استقرائي، إذ يرتبط تسلسل الملفوظات بمبدأ المناسبة الذي يتحكم في تنظيم الأزواج المتجاورة مثل (السؤال والجواب)، تبادل التحيات، العرض والطلب...
وعليه ينظر محللو المحادثة إلى المحادثة على أنها منهجية عرقية بامتياز، بينما يرى الباحثون في مجال تحليل الخطاب أن المحادثة عبارة عن أفعال كلامية متتابعة في نسق لساني، فالفعل في مجال التحليل المحادثي ينطر إليه على أنّه كل تفاعل، بينما ينطر إلى الفعل في مجال تحليل الخطاب أنّه يتحقق بوساطة استخدام اللغة.